هامشية المثقف ورهانات السلطة

قراءة في مشروع" الطاهر وطار " الرّوائي

الأستاذة: علجية مودع
طالبة في الماجستير
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر بسكرة

1/- فاتحة المقال:

إنّ التوجه نحو الباطن من أجل معرفته كما يجب، والحفر في طبقات المجتمع قصد سبر أغوار مشاكله، ومحاولة مسايرة العصر؛ أمر بالغ الأهمية للذي يبحث عن الحل، فكما يقول كارل ماكس:« *لقد اقتصرت مهمة الفلاسفة على تفسير العالم بطرق مختلفة في حين أن المهم هو تغييره.*»

[1] ، وانطلاقا من هذا المسعى أصبح العالم باعتباره فضاء مفتوحا يمكن الولوج إليه من غير جهة مهمة المثقف على غرار الفيلسوف لأنه يحمل وعيا تاما وقناعة ثابتة بضرورة التغيير انطلاقا من أيديولوجيته التي تتجلى أهميتها « *في كونها أداة للتغيير الاجتماعي ورافعة له ..*»[2] .

وليس هذا فقد بل إنه هناك ارتباط وثيق بين هذا المسعى وطبيعة الأيديولوجيا في حد ذاتها يظهر من خلال أنها« *رفض للشكل الحالي للواقع وثورة ضده من أجل تغييره وتركيبه من جديد، لأنها إنما تركز على الحاضر لتدفع به نحو المستقبل، ولتدخل في صراع مع عناصر الواقع الحالي لتفككها أولا، ثم لتعيد بناءها وتركيبها من جديد.*»[3] أضف إلى ذلك أنّ فعل التغيير في صميم ذاته انطلاقا من توجه أيديولوجي معين ما هو إلا «*تأويل لما هو واقع قائم*»[4] .

وتبعا لذلك ففعل التفكيك هذا الذي ينجم عنه هذا التأويل لا يعكس إلاّ ذاتا مثقفة باعتبار الثقافة هي تلك الخلفية *المعرفية* التي تساعد الإنسان من أجل «*تطوير ذاته في فعل خلاق يتضمن الاقتدار على تخطي حتميات الطبيعة من خلال تمثل أفضل الأفكار التي عرفها العالم.*»[5] ، وبتالي فإن صلاح أي مجتمع مرهون بصلاح أفراده فما بالك لو كان هذا الفرد « *هو الذي يهتم بتوجيه الرأي العام، وينخرط في السجال العمومي، دفاعا عن قول الحقيقة أو حرية المدينة أو مصلحة الأمة أو مستقبل البشرية ..*»[6] لأصبح مشروعا لميلاد مثقف حاملا للواء صناعة المعرفة وكاسبا لرهان « *خلق واقع فكري جديد، بإنتاج أفكار جديدة، أو بتغيير نماذج التفكير ..*»[7].

ولكن إذا ما تأملنا قليلا واقع المثقف* العربي وواقع الثقافة العربية إن صحّ التعبير لوجدنا تلك القطيعة بين مراد التغيير باعتباره الهدف الأساسي ومسايرة الراهن باعتباره وسيلة لبلوغ الغاية المنشودة، ذلك أنّ الخاصية التي يطلقها "**إدوارد سعيد**" على طبيعة المثقف عموما أنه« *شخص يراهن بكل وجوده على حس نقدي، حس عدم الاستعداد لقبول الصيغ السهلة ، أو الأفكار المبتذلة الجاهزة..*»[8] .

وكأنه يريد لهذا المثقف أن يكسر المثال، متفقا مع المفكر الرائد "**جورج طرابيشي**" الذي يعتبر المثقف« *هو الناطق باسم المثال، والمثال يستمد فعاليته وأخلاقيته معا من تعاليه على الواقع ومن كونه ضابطا لهذا الواقع* »[9].

فوجد المثقف العربي نفسه بين المركزية والهامشية في الآن نفسه، فمركزيته تتجلى في أنه « *مثقف مستقل أقصى حد، ذو رؤية اجتماعية متقدة وقدرة مدهشة على نقل أفكاره ..*»[10]، أما هامشيته فتظهر عندما يطرح هذه الأفكار«.. *ليس فقط على نحو معارض سلبيا، بل أن يكون مستعدا لقول ذلك علانية وعلى نحو نشط.*»[11] .

ذلك أنّ « قول الحق للسلطة ليس مثالية مفرطة بالتفاؤل: إنه تأمل حذر بالبدائل المتاحة، واختيار البديل الصحيح، ثم تقديمه على نحو عقلاني حيثما يمكن أن ينجح ويحدث التغيير المناسب. »[12]، ولكي ينجح هذا المثقف في تخطي هذه العراقيل التي تؤدي إلى تهميشه ووقوعه في ربق رهانات السلطة أن يتحرر من أيديولوجيته، التي تدعم

مصالحه الخاصة فكما يعرف " **نصر حامد أبو زيد**" الأيديولوجي بأنه:« *وعي الجماعات المرتهن بمصالحها في تعارضها مع مصالح جماعات أخرى في المجتمع.*»[13] أيضا، من دكتاتوريته الفكرية التي يمارسها تحت شعار الديمقراطية، ذلك أنّ أزمة الثقافة العربية عموما تظهر في أنها « *ثقافة أيديولوجيا أكثر مما هي ثقافة معرفة وثقافة حضارة ..*»[14].

فما يحتاج إلية المثقف العربي اليوم هو أن يفتح السّجال مع الآخر من أجل بلوغ المعرفة الحقة، وأن يلجأ إلى مقولة الموضوعية والتجرد من الذاتية وأن يتبع المنهج الاستقرائي، وبتالي نصل إلى تكوين أنتلجنسيا عربية فاعلة تجعل من ثقافة التغيير هدفها الأول والأسمى.

ولما كان الأدب مظهرا من مظاهر التنمية الثقافية، والمساهم الأول في تشكيل الوعي الثقافي باعتباره ضرورة المجتمعات المتحضرة كما يقال، فقد عمد إلى التقاط مادته مما هو ظرفي قصد العلو عليه، ولما كانت الكتابة الأدبية أحسن وسيلة وخير إبداع لعكس الراهن بحثا عن الهوية عن طريق الكلمة باعتبارها « *جوهر الحياة بكل أشكالها وألوانها وطعومها، منها تنطلق شرارة الثورة والتغيير، إذا كانت واعية منبثقة عن معطيات الواقع الحضارية، فتصنع العقول، وتصوغ المشاعر، وتحرك الناس وتنبههم وتوضح لهم معالم الطريق.. والكلمة إذا كانت صادقة التعبير والتوجه؛ مفتاح كل نقلة معرفية فاعلة، لها أثر فعال في توجيه المجتمع نحو التقدم و التحرر..* »[15] أضف إلى ذلك أنّ الكلمة لا تتجه مباشرة إلى هدفها بدون وعي يقودها ألا وهو الكاتب الذي ينبغي كما يقول المفكر " **علي حرب**": « *أن ترمز الكتابة عنده إلى العبارة، وأن تعكس هذه الأخيرة الرؤية التي ينبغي أن تتطابق بدورها مع كينونة الشيء.*»[16]؛ أي مع كينونة هذا المجتمع الذي ولدت الكتابة من أجله، ودخلت أسوار قضياه بما تمارسه من دور تنويري فعال يهجم على تلك المناطق المهمشة و المعتمة من الحياة والوجود الإنساني إذ « *تشكل فاعلية لا تكتفي بان تعكس العالم أو تضاعفه، بل تحاول خلق عالم بديل تحل فيه الكلمات محل الأشياء، ولذة النص محل لذات الجسد.*»[17].

وبتالي أصبح واقع الذات الإنسانية إزاء الآخر وراهن المجتمع في صراعاته مع المثال هو القضية الأساسية التي توجهت إليها الكتابة الأدبية، خاصة الرّوائية ذلك أنها

« تبدأ بالعنصر الذي يوافق خصوصيتها والذي يتمثل أولا وقبل كل شيء بالذات الإنسانية الحرة، التي تخلف وراءها، شيئا فشيئا زمن الكليات المغلقة لتدخل في زمن الخصوصيات المفتوحة.»[18] ، وبتالي يمكن القول بأن الرّواية:« *مسلك من مسالك التثقيف ونشر المعرفة والعلم* وتشكيل الوعي لدى القارئ المفترض.»[19]

وتبعا لذلك برزت أهمية الرّواية كجنس أدبي محارب للواقع، و مناقض للراهن فلو نتأمل قليلا واقع الكتابة الروائية الجزائرية الهادفة على التثقيف والحاملة للواء المعرفة نجد جملة من الكتاب الذين يمثلون دور المثقف العربي الجزائري الذي يستخدم أقوى السبل لنيل مراد التغير، وفي طليعتهم الراحل عن مهنة الكتابة ومتعة الحياة الطاهر وطار.

2/- الطاهر وطار بين التأسيس لثقافة عربية حديثة جزائرية وبين نقد الحياة السياسية:

يعتبر الكاتب الجزائري الرّاحل *"**الطاهر طار**"* ذلك الطائر الحر والكاتب المثير للجدل؛ أبا للرّواية الجزائرية، فقد كان قلمه حاضرا في عمق المشهد الثقافي العربي الجزائري، ما جعله ظاهرة منفردة في الساحة الثقافية الجزائرية من خلال إبداعاته الغزيرة.

هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإن الملفت للنظر أنّه يوظف في منجزاته الرّوائية شخصيات لها صدى سواء في المجال الثقافي أو السياسي وفي الوقت نفسه تعكس توجهه الأيديولوجي فروايته "**اللاز**" صورة حية عن ثقافته الماركسية، أما في روايته "**عرس بغل**" فتظهر بوضوح تلك الثقافة الزيتونية، أما في روايته " **الزلزال**" فيعبر لنا الطاهر وطار عن ثقافته التراثية. و في روايتيه ما قبل الأخيرة " **الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي**" و " **الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء**"، فنلمس توجهه الصوفي على غرار آخر أعماله " **قصيد في التذلل**" التي جاءت معبرة وبصورة جلية ومكتملة عن واقع المثقف إزاء السلطة أبرز فيها وطار عصارة توجهه اليساري ونزعته الماركسية.

هذا ناهيك على أنّ الكتابة الوطارية، كتابة سياسية بالدرجة الأولى يعبر فيها صاحبها عن تلك الواقعية الاشتراكية وإشكاليات الصراع الحقيقي في المجتمع الجزائري

والتحولات التي غمرت جبهة التحرير الوطني، هذه الأخيرة التي ظل يؤرخ لها، أضف إلى ذلك أنه لم يكن مهملا لتلك الثقافة الجزائرية التراثية باعتباره مثالا حيا لذلك المثقف العربي الذي يؤمن بضرورة المزج بين الأصالة والانفتاح، وعلى أنه أمر مطلوب وحتمي في الوقت الراهن. فقد حفلت جلّ رواياته بتلك التعبيرات المجسدة للحياة التراثية والشعبية مصورا هموم الشعب.

كذلك لا يمكننا أن نتجاهل نقطة مهمة في مسيرته الروائية، ألا وهي صورة الشهيد وأمة الشهداء فقد قدمهم برمزية مقدسة تفوق أي رمز تعكس صورة ذلك الشهيد الذي لا يموت بل يعود من القبر.

وإذا ما جئنا لنساءل هذه المنجزات الإبداعية مساءلة تفكيكية لوجدناها أرضا خصبة يقدم لنا فيها صاحبها روحه الثقافية الباحثة عن فجوة لتفجير صاروخ التغيير.

أولا: الطاهر وطار وروايته "اللاّز":

إنّ رواية اللاّز[20](الجزائر 1974)، تعدّ تصويرا لواقع الثورة والمجتمع الجزائري، أيضا تعد تجسيدا لأزمة الانتماء والولاء بحثا عن الهوية، حيث رصد فيها تناقضات الثورة الوطنية الجزائرية، وليس هذا فقط بل تناول فيها الشأن الجزائري وكفاحه ضد الاستعمار الفرنسي وكيف كان للشيوعيين يد في التحرير الوطني ويرمز اللاّز في هذا المنجز إلى الشعب وإلى نضاله قصد فرض شخصيته واثبات هويته.

ثانيا: الطاهر وطار وروايته "الزلزال":

وحبا في التغيير لجا الطاهر وطار في روايته الزلزال[21](الجزائر1981)، إلى تصوير معاناة الشعب الجزائري التي تحولت في رأيه إلى معضلة، فوصف تحولاتها بشكل درامي ذلك عندما أخذ "بلرواح" بطل الرواية يتذكر شكل مدينته الأصلية – قسنطينة– وكيف زاد عدد سكانها.. لكن الطاهر وطار يؤكد أنه على الرغم من هذا الواقع المرير الذي تعيشه الجزائر لا يمكننا أن نطفأ شمعة الأمل بتفاؤله الدائم بمستقبل بلاده ووثوقه الأكيد بقدرتها على تجنب النزاع الداخلي.

ثالثا: الطاهر وطار وروايته "الحوات والقصر" و "عرس بغل":

لقد عالج الطاهر وطار في كل من رواية " الحوات والقصر"[22] و "عرس بغل"[23] (الجزائر بين1987و 1988) أيديولوجية البرجوازية الصغيرة، القائمة على الازدواجية محاولا من وراء ذلك أن يخرج نفسه من بوتقة الواقعية الاشتراكية طمعا في واقعية اشتراكية على طريقته الخاصة أي خادمة لأيديولوجيته الذاتية كما أصر على توظيف التجريد والسريالية في روايته "عرس بغل" بالذات.

رابعا: الطاهر وطار وروايته "الموت والعشق في الزمن الحراشي":

أما روايته هذه العشق والموت في الزمن الحراشي[24] فقد كان منشغلا فيها بذكريات الثورة ومآلات أبطالها، وإمكانية تحول الذاكرة وتحويل أبطالها إلى أبطال مقدسين وأولياء صالحين، كما تطرق إلى ذلك النزاع بين نوعين من المثقفين؛ مثقف ينصر السلطة وينحاز إلى الدين محاولا الدفاع عنه و آخر يعارض السلطة وينحاز إلى التوجه الاشتراكي الشيوعي مدافعا عن مبادئه هو الآخر، أضف إلى ذلك أنه أراد التأريخ لثورة زراعية تتساوى فيها النخبة مع الدروليطاريا من أجل نيل المراد، كذلك استخدم نبرة التفسير الاشتراكي للمؤسسات.

خامسا: الطاهر وطار وروايته "الشمعة والدهاليز":

في هذه المرحلة نجد أنّ الطاهر وطار من خلال روايته الشمعة والدهاليز[25] (الجزائر 1995) قد لجأ على كتابة الفوضى والتمرد و نقد الوضع السياسي فوطار الذي لم يقف متفرجا على غياب الاستقرار وغياب العقل فنجده يدخلنا في سراديب كثيرة وبقدر ما تتعدد السراديب تتعدد معها التساؤلات المحيرة والمقلقة في الآن نفسه فهي تارة تتخذ أبعادا نفسية اجتماعية وتارة أخرى تأخذ أبعادا تاريخية سياسية.

وفي هذه الرواية بالذات يصور لنا الطاهر وطار هامشية المثقف إذ اعتبره ضحية متجلية صورته في الشاعر ولكنه يوجه رسالة حتى وإن كانت ضمنية فمدعاها واضح وجلي تتمثل في استخدام الشمعة كرمز للأمل الذي ينطفئ بل دائم الإضاءة أيضا

كرمز للتضحية فالشمعة تضحى بنفسها من أجل راحة الآخرين ومن أجل الإنارة عليهم. كما يضحي المثقف من أجل بقاء نوره ساطعا إزاء ظلمة السلطة والسياسية الراهنة، وقد تشترك هذه الرواية مع روايته الأولى اللاز فبطلها يمثل ذلك المثقف المعرض للسلطة فهو صاحب مبدأ لا يقبل المساومة بل يسلك طريق الشرف والإخلاص للوطن، ولكن مصيره يبقى مصير كل من ينوي أن يعارض نظاما ما أو من يخرج على السائد محاولا تغييره.

سادسا: الطاهر وطار وروايته " قصيد في التذلل[26]:

هذه الرواية التي تعد أخر إبداعات الراحل فيها يخرج علانية ليتحدث عن كل ما له علاقة بالراهن الجزائري وبكل ما فيه من تناقضات مقدما نماذج عديدة حول الفساد من بيروقراطية وجوسسة وترويض للإشاعات وشعوذة واحتيال وتزوير وطرقا بابا لم يطرق من قبل ألا هو باب التبعية أي وقوع المثقف المتمثل في البطل أسير رهانات السلطة لما حاول أن يتلاعب معها على أمل أن يغير الواقع.

3/- ختام المقال:

وانطلاقا مما تقدم يمكننا أن نقرّ بأنه حين قراءتنا لكتابة الراحل الطاهر وطار، فإننا حتما نقرأ مشروعا روائيا ضخما يتسم بالتماسك والترابط أي نعم مصورا لأيديولوجيته لكنه ناقدا ومناضلا للوضع الراهن طالبا البديل فصور لنا معاناة المثقف وتهميشه وليس هذا فقط بل وتحويله من فاعل ي وظيفته الاجتماعية والثقافية إلى معزول عن المجتمع برمته، وهذا ما يؤدي في نظره إلى خسارة كبيرة للوطن، بسبب تجميد إبداعات هذا المثقف وأفكاره، فوطار يوضح لنا وبصورة جلية كيف تمّ إسقاط الصفة القانونية للمثقف الجزائري وإبعاده عن المشاركة في استنهاض أمته وصناعة مستقبلها.

كما أنّ السلطة في نظره على مختلف أشكالها تسعى للسيطرة على مجتمعها لضمان استمراريتها ولتنفيذ برامجها، فالمثقف هو المالك لذلك الفكر النقدي وهو المتحدي والثائر يقع في الأخير في مصيدة الرهن والتهميش.

الهوامش:

[1] عمر مهيبل: من النسق إلى الذات "قراءات في الفكر الغربي المعاصر"، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2001، ص 217

[2] إبراهيم محمود عبد الباقي: الخطاب العربي المعاصر " عوامل البناء الحضاري في الكتابات العربية"، العهد العالمي للفكر الإسلامي، هوندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2008، ص 115

[3] المرجع نفسه، ص 116

[4] محي الدين أبو شقرا: مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب، المركز الثقافي ، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ص77

[5] إبراهيم محمود عبد الباقي: الخطاب العربي المعاصر، ص 120

[6] المرجع نفسه، ص 166

[7] المرجع نفسه، ص 167

[*] نقصد هنا المثقف وليس المفكر فهناك فرق بينهما يتمثل في أن المثقف يمارس نقده على جبهة " الممنوع" كما يقول علي حرب؛ أي ما يمنع بسبب الضغوط الاجتماعية أو بسبب السلطات المختلفة، أما المفكر فيفكر بخلاف المثقف أو لنقل بعكسه حيث يركز نقده على جبهة " الممتنع"، ذلك أنه صانع الأفكار.

[8] إدوارد سعيد: الآلهة التي تفشل دائما، ترجمة حسام الدين خضور، التكوين، بيروت، لبنان، د.ط، 2003، ص 35

[9] جورج طرابيشي: هرطقات " عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية"، رابطة العقلانيين العرب ودار الساقي، لبنان، ط1، 2006، ص117

[10] إدوارد سعيد: الآلهة التي تفشل دائما، ص 32

[11] المرجع نفسه، ص 35

[12] المرجع نفسه، ص 117

[13] إبراهيم محمود عبد الباقي: الخطاب العربي المعاصر، ص 120

[14] نصر حامد أبو زيد: النص والسلطة والحقيقة " إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 2006، ص 99

[15] المرجع السابق، ص 195

[16] علي حرب: الممنوع والممتنع " نقد الذات المفكرة"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005، ص 12

[17] المرجع نفسه، ص 12

[18] فيصل درّاج: نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999، ص 144

[19] هدير البقالي: حوار مع الدكتور جميل حمداوي حول الرواية العربية، http:\\ www. Diwanalarab.com، (18 فيفري 2008)، ص 1

[20] الطاهر وطار، اللاز، موفم ENAG، الجزائر، 2004

[21] الطاهر وطار، الزلزال، موفم ENAG، الجزائر، 2005

[2]2 الطاهر وطار، الحوات والقصر، موفم ENAG، الجزائر، 2005

[2]3 الطاهر وطار، عرس بغل، موفم ENAG، الجزائر، 2007

[2]4الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، موفم ENAG، الجزائر، 2004

[2]5الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، موفم ENAG، الجزائر، 2007

[2]6الطاهر وطار، قصيد في التذلل، الفضاء الحر، الجزائر، 2010